

مسيرة العودة مشاهدٌ وصوّرٌ



16 إبريل 2018 - 08:05

د. مصطفى يوسف اللداوي

مسيرة العودة الكبرى (5)

شكلت مسيرة العودة الكبرى مسار حياةٍ جديدةٍ لفلسطيني قطاع غزة، وبانت مفردة طبيعية في حياتهم، وفعالية يومية مشوقة لا يستغنون عنها، ونشاطاً دائماً مرغوباً يتهيأون لها ويستعدون لاستقبال يومها، ويترقبونها بشغفٍ وينتظرون انعقادها بأملٍ، رغم ما يكتنفهم فيها من مخاطر، وما قد يتعرضون له من حوادث كبيرة كالاستشهاد والإصابة، إلا أن هذه الأخطار المتوقعة لا تنفي أبداً تعلق الفلسطينيين بمسيرتهم، وإيمانهم بها، وحرصهم على الالتزام بفعاليتها، والمشاركة في أنشطتها، والحفاظ على وتيرتها والاستمرار فيها.

العلم الفلسطيني الزاهي القشيب، بألوانه الأربعة الأصيلية، حاضرٌ في كل مكان، وموجودٌ في كل الساحات، يرفعه الفلسطينيون جميعاً أياً كانت انتماءاتهم التنظيمية وولاءاتهم الحزبية، فهو الراية التي اتفق المنظمون على رفعها، وهي العلم الذي قبل الفلسطينيون الاجتماع في رحابه، والتفويض تحت ظلّاه، فلا تنافسه رايةً، ولا يحل مكانه شعارٌ آخر، ولا يختلف أو يتأخر عن رفعه أحدٌ.

لكن الفلسطينيين لا يكتفون برفع العلم فوق خيامهم، ولا على سارياتٍ عاليةٍ نصبوها في مناطقهم، بل يقدم في كل يومٍ شبانٌ فلسطينيون، شجعانٌ لكنهم مغامرون، تملأهم الحماسة وتسكنهم الغيرة، لا يعرفون الخوف ولا يهابون من الخطر، يرفعون علم بلادهم فوق السياج الفاصل، ويزرعونه في الأرض وتبدأ أمام عيون جنود الاحتلال، ويدعونهم يرفرف فوق الأسلاك وعلى الرُبى والتلال، وقد يسرع بعضهم حاملاً العلم عالياً، ويتجه به بقوةٍ نحو السياج، ويقترّب بعلمه من جنود العدو وقناصته.

يحرص المحتجون الفلسطينيون خلال فعاليتهم اليومية في مسيرة العودة الكبرى، على رفع الأذان وإقامة الصلوات وأدائها في أوقاتها بأعدادٍ كبيرةٍ على السياج الفاصل، فيبدو مظهرهم مهيباً وحضورهم لافتاً، وأصواتهم المؤمنة على الدعاء أو المكبرة أثناء الصلاة مرعبة للإسرائيليين، الذين يرقبونهم وهم يؤدون الصلاة، ويشاهدون صفوفهم الطويلة، وأعدادهم المرصوصة، وحركاتهم المنسجمة، وأصواتهم الموحدة، فيصيبهم الهلع مما يرون، ويعتريهم الخوف مما يشاهدون.

ولهذا فإنهم يحرصون في كل مرة على تعكير صفو صلاتهم، وتكدير جمعهم وتشتيت صفوفهم، إذ يطلقون على المصلين قنابل الغاز المسيلة للدموع، كما تفرق جمعهم، وتفسد صلاتهم، ورغم علم المصلين بسلوك جنود الاحتلال ومعرفتهم المسبقة بنواياهم الخبيثة، إلا أنهم يصطفون أمامهم رجالاً ونساءً، وأطفالاً وشباناً، ويتحدونهم بصلاتهم، وينبتون أمامهم بأجسادهم العارية، وصدروهم المنتفخة، ورؤوسهم العالية المتشامخة، ويجلسون على الأرض قبالتهم يسامعون إلى الخطيب ويصغون بصمتٍ له.

تتعدد الحلقات والندوات على السياج الفاصل خلال أيام مسيرة العودة، وتتبارى الجامعات في تنظيم حلقات البحث والمناقشة، وتجتهد الهيئات القانونية والحقوقية في عقد محاكم دولية "صورية" لمحاكمة مجرمي الحرب الإسرائيليين، وإصدار الأحكام في حق الجنود والضباط الذين يرتكبون جرائم في حق الفلسطينيين، وخلالها يستعرضون حقوق الفلسطينيين واعتداءات الإسرائيليين ومخالفاتهم للقوانين والأحكام والأعراف الدولية.

ويلتقي في الخيام المنصوبة والسراياق الواسعة جمهورٌ كبير يستمع إلى المتحدثين والخطباء، إذ دأب مسؤولون فلسطينيون كبار على إلقاء كلماتهم العامة من على منابر مسيرة العودة الكبرى، حيث يؤم المحتجين في ساحاتهم، قادة الفصائل والتنظيمات، ومسؤولون ونقابيون وحقوقيون وسياسيون وغيرهم، يلقون كلماتهم، ويشحذون همم أهلهم، ويشجعونهم للمضي قدماً في مسيرتهم.

ولا يكاد يمر يومٌ دون أن يعقد منظمو مسيرة العودة مؤتمراً صحفياً، يشرحون فيه أهدافهم، ويبينون مواقفهم، ويحددون فيها ضوابطهم وحدود التحرك الشعبي، وفيها يعلنون عن حصيلة الجرائم الإسرائيلية بحق أبناء شعبهم، ويكشفون عن أعداد الشهداء والجرحى، والمناطق التي استهدفوا فيها، وغير ذلك من نتائج الحراك الشعبي خلال أسبوع ما بين الجمعيتين.

ويشارك عامة الفلسطينيين في بطحاء الحدود الشرقية والشمالية لقطاع غزة بأشكال مختلفة، وفعاليات متنوعة، فبعضهم يلقي قصائد شعرية، وآخرون يشتركون في مشاهد تمثيلية، بينما يتحلق بعضهم حول واعظٍ أو شيخٍ، أو يستمعون إلى خبيرٍ أو مختصٍ، بينما تنقل مكبرات الصوت التوجيهات والتعليمات، وتكرر الضوابط والإرشادات، مما يجعل من المسيرة العامة، يوماً حافلاً بالأحداث، ومليناً بالمفاجآت، وزاخراً بالفعاليات التي تبعث على الحماس، وتحرض على الثبات، وتدعو للاستمرار، وتشجع على البقاء والتضحية والفداء.

أما المجلس التشريعي الفلسطيني فما كان غائباً عن الأحداث، ولا بعيداً عن الساحات، فقد حضر عبر سكرتاريته التي أعلنت عن نية المجلس عقد اجتماعٍ عامٍ لأعضاء المجلس التشريعي على السياج الفاصل خلال أحد أيام المسيرة الكبرى، وقد يشهد جلساته جموعٌ عامة من الفلسطينيين، وستطرح فيها قضايا كثيرة ومتعددة، وإن كانت هموم الأسرى والمعتقلين في مقدمة برنامجهم، وأحد أهم البنود على جدول أعمالهم.

إلا أن هذه المشاهد كلها لا تحجب التجمعات الشعبية على السياج، التي تقف تهتف وتكبر، وتتطلع بعيونها من بعيدٍ إلى أرضها، وتهفو قلوبها إلى مواطنها، فيكون رد جنود الاحتلال عليهم وإبلاً من الرصاص القاتل والمطاطي، ومئات قنابل الغاز الخائقة والمسيلة للدموع، طانين أن رصاصهم سيخيف المحتجين وسيردعهم، وقنابلهم ستفركهم وستشتتهم، وأن قناصتهم ستبث الرعب في قلوبهم وترهبهم، وما علموا أن الفلسطيني قد جاء إلى أرض المعصية وهو يعلم أنه في مواجهة عدوٍ سيقتله، وجنودٍ سيطلقون النار عليه، وأنهم في هذه المواجهة جميعاً مشاريع شهداء أو أهدافاً للإصابة.

غدت لمسيرة العودة الكبرى طقوسٌ وعاداتٌ، وعلاماتٌ ومميزاتٌ، وأصبح لها مرافقها ولوازمها، وساحاتها ومراكز التجمع فيها، وأصبحت خيامها مكاناً للقاء وساحاتها مراكزاً للتجمهر والاجتماع، وكثرت فيها المشاهد الجديدة المميزة، وتعددت الصور الشعبية الرائعة، التي تدل على الوحدة والاتفاق، وعلى التعاون والإخاء، وقد يصعب على أحدٍ أن يرصد كل ما يدور في ساحات العودة من أنشطة، أو أن يسجل ما يدور في أروقتها من أحداث، إذ أنها عديدة ومتجددة، وفي كل يوم تبرز مشاهد جديدة، وتطغى ظواهر أخرى، الأمر الذي يجعل من مسيرة العودة فرصة للإبداع، وميداناً رحباً للعباء، ولهذا فقد لا أذكر هنا غير القليل من مشاهدها الجميلة، والنزر اليسير من فعالياتها اليومية، ومع الأيام وتوالي المقالات قد أحيط بأغلبها، وقد أسلط الضوء على أكثرها.